# أسس الفكر النقدي وقيمه في كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) للقاضي الجرجاني

أ.ياسين خروبي
جامعة قاصدي مرباح ورقلة(الجزائر)

Comprend livre (médiation entre Mutanabbi et les opposants) sur un certain nombre de points de vue critiques, ce qui indique la sensibilité et la culture torrentielles propriété de l'auteur de ce livre Abul Hassan Ali Abdul Aziz Jerjani connu juge Jerjani, ce qui pourrait sortir de fournir une nouvelle image de la communion est différent de ce qu'il a souffert prédécesseurs dans un grand nombre de questions monétaires, ce qui rend le livre au centre de l'attention des chercheurs dans l'ancienne Agence monétaire d'Arabie

يعتبر الكثيرون أن أبرز ما يحسب للقاضي الجرجاني في تاريخ النقد العربي القديم أنه سعى إلى التقعيد، وحاول أن يكون قريباً مما يسمى اليوم (فلسفة المعرفة) فقد قدم الرجل تنظيراً مقبولاً لغير قليل من الظواهر الفنية في الشعر العربي[1]. وسنحاول أن نعرض أبرز تلك المبادئ النقدية العميقة التي يقوم عليها التفكير النقدي عند القاضي والتي تعد قيمة نقدية رائعة في ذلك العصر أضاءت الطريق لغيره من النقاد والأدباء ممن جاؤوا بعده، ويمكن توضيح تلك الأسس والقيم على النحو الآتي:

**أولاً: البيئة أساس اختلاف أسلوب الشعر:**

خصص الجرجاني حيزاً كبيراً من وساطته لبيان مدى تأثير المواطن التي يعيش فيها الشعراء على جودة أشعارهم، ذلك لما للبيئة- حسب رأيه- من أثر بالغ في تمايز الأشعار وتباينها، وبنى رأيه هذا انطلاقاً من« شعور عام، كان يسيطر على أذهان النقاد اللغويين من الرواة آنذاك، وهو أن الشعر الجاهلي يختلف فنياً ولغوياً، حسب درجة تبديه أو تحضره فشعر أهل الوبر، وهم سكان البادية، يختلف فنياً ولغوياً عن شعر أهل الحواضر العربية»[2].

وهذا ما يجعل شاعراً جاهلياً من أهل الحواضر كعدي ينظم شعراً أسلس كما يقول القاضي الجرجاني من شعر رؤبة والفرزدق وهما من الأعراب وأهل البادية[3].

فجودة الشعر مرتبطة بالبيئة التي يعيش فيها الشاعر، فكلما ابتعد عن حياة البدو إلى الحضر سلست ألفاظه، وسهلت معانيه، والعكس صحيح، كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم(من بدا جفا)[4]، فأثر البداوة على الشاعر يتضح من خلال معجم الألفاظ التي يستعملها.

من هنا يؤكد الجرجاني أن هناك عوامل تؤثر في أساليب الشعراء وألفاظهم مما يؤد إلى اختلافها ويذكر من هذه العوامل الطبيعة الشخصية، والبيئة من بادية وحاضرة والحالة النفسية للشخص ومن ثم يقول: « وقد كان القوم يختلفون في ذلكوتتباين فيه أحوالهم، فيرق شعر أحدهم، ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم، ويتوعّر منطق

غيره وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع، وتركيب الخلق، فإنسلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة...»[5].

وكثرت الحواضر وانتقال أهل البوادي إلى القرى مرده عند القاضي اتساع ممالك العرب مع انتشار الإسلام، فلانت الطباع ورقت القلوب ونتيجة لهذا« اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شـــيء ذي أســـماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعاً، وألطفها من القلب موقعاً، وما للعرب منه لغات فاقتصروا أسلسها وأشرفها»[6].

ولأن القاضي الجرجاني قد فهم حقيقة تأثير الظروف الطبيعية والاجتماعية في الإنتاج الأدبي، وطبق ذلـــك عملياً في الرد على ما ادعاه خصوم المتنبي وعابوه في شعره، فيكون بذلك ما توصل إليه منذ القرن الرابع الهجري يطابق« أحدث ما وصل إليه العلم الحديث في تأثير العوامل الطبيعية. فالبيئة الواحدة تكيف أسلوب الإنسان وعقليته، كما تكيف بنيته العضوية»[7].

وبما أن خشونة الألفاظ ووحشيتها وتوعُّرُها سمات غالبة على أشعار القدماء كنتيجة طبيعة لغلظة طبـــاعهم وقسوتها-التي هي نتيجة طبيعية لقسوة البيئة وشدتها- فإن عكس هذه الصفات في كلام الشاعر هو النتيجة الطبيعيـــة لبيئة هي عكس البيئة القديمة، أي لبيئة متحضرة رقيقة في مظهرها وفي طباع أهلها[8].

ومن هنا كان ما ذهب إليه الجرجاني عندما اعتبر أن ميل شاعر متحضر كأبي تمام إلى الإغراب والتعقيـــد واستخدام الوحشي من الألفاظ هو من قبيل التكلف لم ليس في طبعه جعله يقع في التناقض من ناحيتين« من ناحيـــة يوقعه في التعقيد والاحتذاء، لنموذج في القول أملته طباع مخالفة لأنها عاشت في بيئة وعصر خلاف عصره وبيئته، ولأنه من ناحية أخرى يوقعه في التفاوت في مستوى كلامه نتيجة لما يتجاذبه من هذين القطبين:مقتضيات العصـــر والبيئة من جهة والنموذج القديم المحتذى من جهة ثانية»[9].

فشعر المحدثين يكون أقرب لحياتهم كلما بعد عن الغرابة والبداوة ومال إلى الليونة والسهولة أما إذا تكلـــف صاحبه الاقتداء بالأوائل فإن شعره يأتي « أمشاجاً متباينة، فيعيبه تعثره، وعد ملحاقه بمن أراد تقليدهم، وينبـــو بـــه مركبه، وتتعثر قدمه»[10].

على هذا الأساس يرى الدكتور سلام زغلول أن الناقد بمقدوره أن يفرق بين ما ينظمه شعراء البوادي مـــن جهة وما ينظمه شعراء الحواضر من جهة أخرى، لأن أثر البيئة ظاهر لا يمكن تجاهله« فالشاعر الذي يعيش فـــي الصحراء يغرف من ألفاظ بيئته ويستلهم من طبيعتها ما شاء أن يستلهم، والشاعر بعد كل ذلك هو ابن بيئته وعصره، وليس شعر القدماء كشعر المحدثين ولاطلب من المولدين أن يتبعوا الجاهليين في أنماط شعرهم وأساليبهم وصورهم فلكل من الفريقين إمكاناته وظروف بيئته وعصره التي تملي عليهما يقول»[11]، فإذا اختار الشاعر المحدث الاقتـــداء بكلا الفريقين وقع في« جنايات هذا الاختيار...وجار على عادته يختلجه الطبع الحضري، فيعدل به متسهلاً، ويرمي بالبيت الخنث، فإذا أنشد في خلال القصيدة، وجد قلقاً بينها نافراً عنها؛ وإذا أضيف إلى ما وراءه وأمامه تضـــاعفت سهولته، فصارت ركاكة»[12].وقصد القاضي بهذا الكلام أبي تمام الذي رام الإقتداء بالأوائل فتفاوتت أشـــعاره فـــي القصيدة الواحدة، بين الجودة والرداءة.

وهكذا نرى أن الجرجاني قد أحس بأثر البيئة وأشاد به وجهد في تفسيره وتبريره وفي الاستشهاد له والبرهنة عليه والوقوف عند أمثلته وكأنه أراد أن يسوقه مذهباً أو كمذهب في الدرس الأدبي بالقدر الذي يسمح بـــه القـــرن الرابع الهجري[13].

وقد سبق القاضي الجرجاني في الحديث عن تأثير البيئة في الشعر ابن سلام الجمحي فـــي كتابـــه (طبقـــات فحول الشعراء) بل نجد أن القاضي يستشهد بشعر عدي لتبيان مدى تأثير البيئة في الشعر وهو من الأمثلـــة التـــي أوردها الجمحي، إلى أن القاضي تميز في طريقة طرحه للموضوع بأن أضاف لتأثير البيئة عوامل أخرى كما رأينا- اختلاف الطبائع والمزاج النفسي وغيرها- وبهذا يكون القاضي قد مهد لتكون هذه الفكرة منطلقاً لمعرفة مدى تـــأثير السياق الخارجي لنص في جودته وهذا ما تنشغل به مدارس النقد الحديثة.

**ثالثاً: العدل ونبذ التعصب في النقد:**

يفتتح القاضي وساطته بمقدمة يلح فيها على نبذ الأهواء في ما يصدره الناقد من أحكام ويدعو إلى ضـــرورة الإنصاف لأنه أصل العدل، ولهذا وضع القاضي خطوطاً عريضة يستوجب على الناقد التقيد بها، للحكـــم علـــى أي شاعر، بعيداً عن العصبية في النقد التي تكدر الطبع وتطفئ الذهن، وتلبس العلم بالشك، فتحسن للمنصف الميل؛ فإن استحكم التعصب ورسخ في ذهن الناقد صور له الشيء بغير صورته، وحال بينه وبين تأمله ويتخطـــى بـــه مـــن الإحسان الظاهر إلى العيب الغامض؛ فما ملكت العصبية قلباً فتركت فيه للتثبت موضعاً؛ أو أبقت منـــه للإنصـــاف نصيباً[14].

فالحكم النقدي قد يحيد عن الإنصاف والموضوعية،إذا لم يتخل الناقد عن ذاتيته وأحكامه المسبقة والتـــي لا تستند على براهين مثبتة، بل تستند على دوافع نفسية محضة كالتعصب والحسد والحقد، ففي مقدمة كتابـــه يكـــرر القاضي لفظة الحسد خمس مرات لتنبيه النقاد من خطورة هذه الصفة البغيضة وأثرها السلبي على تقويم أي عمـــل أدبي، وهذا واضح في ما اقتبسنا من مقدمة الوساطة« والتنافس سبب التحاسد...فلجأ إلى حسد الأفاضل...كم مـــن فضيلة لم تستثرها المحاسد ...لكن برزت فتناولتها ألسن الحُسد...»[15]،هذه الصفة الناتجة عن عصبية غير مبررة حسب رأي القاضي؛ ستجعل من روائع الأشعار ومختاراتها معيبة ناقصة.

ومن هنا كانت دعوة القاضي لنبذ التعصب والعدل في ما يصدره الناقد من أحكام منطلقاً للكثير من الدارسين ليعتبروا في تعليقهم عن منهج القاضي في الدفاع عن المتنبي أنه منهج واضح المعالم، بين الملامح، إذ بدأ بالـــدعوة إلى العدل في الحكم وعدم تناول الموضوع بروح التحيز والهوى له أو عليه[16].

فالقاضي لا يجامل المتعصبين من النقاد بل يصفهم في أكثر من موضع في وساطته بـــالنقص والتقصـــير ولذلك يرى أن « أهل النقص رجلان:رجلٌ أتاه التقصير من قبله، وقعد به عن الكمال اختياره، فهو يساهم الفضـــلاء بطبعه، ويحنو على الفضل بقدر سهمه؛ وآخر رأى النقص ممتزجاً بخلقته، ومؤثَّلا في تركيب فطرتـــه، فاستشـــعر اليأس من زواله، وقصرت به الهمة عن انتقاله، فلجأ إلى حسد الأفاضل، واستغاث بانتقاص الأماثل...»[17]. فـــدافع الكثير ممن عاب شعر المتنبي هو الحسد و انتقاص الأفاضل للحط من قيمة أشعارهم، وهي حسب القاضـــي صـــفة تكدر صفوة النقد وموضوعيته، فسببها عجز الحاسد وعدم قدرته على الوصول إلى المكانة التي يتبوّؤها المحســـود؛ فيعمد إلى الانتقاص من كل ما هو جميل وحسن، والتستر عن عجزه بتهجم عن غيره[18].

كما أن القاضي يكرر في أكثر من موضع في كتابه ويلح على فكرة الإنصاف والتثبت في ما يصدره الناقد من أحكام؛ وينبه إلى أن « العصبية قد تحمل العالم على دفع العيان وجحد المشاهدة، فلا يزيد على التعرض للفضيحة،والاشتهار بالجور والتحامل»[19].

وثمة مبدأ يسير عليه القاضي الجرجاني، ينتصر فيه لهذه الفكرة النقدية، هو مبدأ (العَدل). والعدل عند القاضي الناقد يستلزم أمرين: الانتصار لمن وقع عليه الجور بسبب ما يُدّعى من نقيصة، والاعتذار لنقائصه إن كانت هذه موجودة حقاً[20]، وعن هذا يقول القاضي: « وكما أن الانتصارَ جانب من العدل لا يسدّه الاعتذار؛ فكذلك الاعتذارُ جانبٌ هو أولى به من الانتصار، ومن لم يفرق بينهما، وقفت به الملامةُ بين تفريط المقصِّر، وإسراف المفرِّط، وقد جعل الله لكلّ شيء قدراً، وأقام بين كل حديث فصلاً، وليس يطالب البشر بما ليس في طبع البشر، ولا يلتمس عند الآدميّ إلا ما كان في طبيعة ولَدِ آدم...»[21].

فعلى الناقد الحقيقي أن يكون وسطياً عادلاً منصفاً في ما يصدره من أحكام، ومن أجل هذا عليه أن يتجرد من الأهواء الذاتية و الجنوح إلى الموضوعية، إذ لا مكان للأهواء في العلم فيقول: « وكما ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لها على الحق، أو تميل في نصرها عن القصد، فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف أو تخرج في بابه إلى الإسراف، بل تتصرف على حكم العدل كي فصرفك»[22].

ودعوة القاضي إلى الموضوعية والتجرد من الذاتية والأهواء الشخصية، مردها طريقة النقد التي كانت شائعة في عصره و التي غلب عليها التعصب لبعض الشعراء دون سواهم إذ إن « هذه العصبية تشوه فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، فتفقد الإنسان عفوية الذوق الذي يعد مفتاح لكل عملية نقدية، ثم إن العصبية تكبت في الإنسان كل قدراته العقلية التي على أساسها يبني عمله في تحليل الأعمال الأدبية وتفهمها وتفسيرها»[23]. فالقاضي يعتبر الناقد بمثابة قاضي فهو ملزم بتجرد من أهوائه وميولاته الخاصة فيما يصدره من أحكام.

وهذا ما جعل بعض النقاد يصرون على أنه لا يوجد صفة يتحلى بها الناقد أجل وأعظم من صفة العدالة فيوزنها وقيمتها، فيصبح الناقد بذلك بمثابة الحَكَمٌ الأمين الذي ينبغي أن يضع في يده موازين عادلة، رشيدة لاتميل مع أي هوى ولا أي تعصب[24]، فالعدل والإنصاف في الحكم ليس شعاراً بل مبدءاً عمل به القاضي من بداية كتابه إلى منتهاه،وطبقه حتى على نفسه فيقول: « وتحكم علي حكم المنصف المتثبت وتقضي قضاء المقسط المتوقف»[25]، وقوله: « ثم انظر وحكم وأنصف...»[26]فنجده يلح على العدل والإنصاف في كل حكم على اعتباره الهدف والأصل في كل عملية نقدية، فالقاضي الجرجاني رجل لا يعرف التعصب كما يقول محمد مندور[27]. كما أنه يدعو كل ناقد إلى خلع رداء العصبية، فقد « يتفق لأحد هؤلاء غلبة الإنصاف على قلبه في الوقت بعد الوقت، فيخلع رداء العصبية، ويصغي ويميز فيراجع...»[28].

فالكثير من النقاد تأخذهم عزة النفس على الرجوع عن موقف أو حكم غير منصف أصدروه ظلماً وتعصباً، وإن كان البعض منهم يمتلك صفات الناقد المنصف فلا يتوانى في الرجوع عن موقفه إذا رأى ما ينقضه.

**رابعاً: حوافز الإبداع في فن الشعر:**

الشعر عند القاضي الجرجاني علم له أدواته وشروطه ومقاييسه الخاصة، التي يجب أن يلتزما بها من أراد قرضه، ومن اجتمعت له هذه الشروط أو العناصر فهو المجيد المبرز فالقاضي يقول:« إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحدٍ من أسبابه؛ فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان»[29].

يجمع القاضي في هذه العبارات المقتضبة، كلاماً بالغ الدلالة بل إنه كلام متقدم على أهل زمانه ومستعصي حتى على نقاد عصرنا الحالي إذ مازالوا منبهرين ومختلفين حوله إذ يخرج القاضي الشعر من الإطار الضيق الذي حشر فيه-عندما حددت مقياسه بالوزن والقافية فقط- ليجعله علم من علوم العرب « على أن نفهم مدلول كلمة علم في هذا العصر الذي لم يكن يفرق بين العلم والأدب، ويجعل كلمة (العلم) شاملة لهما. وهو قد تحدث عن حوافز الإبداع الأدبي، وحددها بصورة أدق مما كانت معروفة عند العرب والإفرنج»[30].

فعلى على قدر حظ الشاعر من هذه العناصر يأتي تجويده وتفوقه في ما ينظمه من أشعار على أن درجة الأهمية لهذه الحوافز أو العناصر تختلف من شاعر إلى أخر فإذا «كان تعويل المحدثين على (الرواية) في المقام الأول، فإن تعويل القدماء إنما كان على (الطبع)،رغم أخذهم بالرواية والحفظ»[31] فالقاضي ينطلق من فكرة مفادها أن العرب كانت«تروي وتحفظ، ويعرف بعضهم برواية شِعر بعض وكما قيل: إن زهير كان راوية أوس، وإن الحطيئة راوية زهير...غير أنها كانت بالطبع أشد ثقة وإليه أكثر استئناساً، وأنت تعلم أن العرب مشترك في اللغة واللسان، وأنها سواء في المنطق والعبارة »[32].

فقد تفطن القاضي إلى أن الرواية عند العرب بمثابة التلمذة « فمن الشعراء من تتلمذ لغيره بأن صار راوية له فبرز في الشعر سائراً على نهج أستاذه حتى لتتكون أحياناً مدارس بعينها كتلك التي قامت على أوس بن حجر وزهير والحطيئة. وقد أخذ هؤلاء الثلاثة بعضهم عن بعض وحدثنا عن ذلك القدماء، فاستطاع ناقد حديث كالدكتور طه حسين أن يستنبط الخصائص الفنية التي تميز تلك المدرسة وأن يردها إلى تثقيف الشعر، ثم إلى الاعتماد على الخيال الحسي»[33]، فعندما ذكر أن زهيراً كان راوية أوس قصد انه تلميذه ونفس الشيء مع أبي ذؤيب فهو تلميذ ساعدة بن جؤبة وغير ذلك من الأمثلة التي أوردها.

ومن هنا اعتبر الكثيرون أن تحديد الجرجاني لعناصر أو حوافز الإبداع في فن الشعر من الاجتهادات الموفقة التي تحسب له، وقد دفعه إلى استنباطها تساؤله الدائم عن أسباب التفوق في الإبداع الشعري لتكون هذه العناصر- الطبع والرواية والذكاء والدربة- بمثابة الحوافز التي إذا ما توافرت لشاعر اغتفرت زلاته وهناته[34].

فالشعر لم يعد مقياسه الوزن والقافية فقط بل لا بد من طبع وذكاء ودربة ورواية، ولعل الجرجاني قد أفاد من الآراء المتقدمة وبنى عليها، فمن النقاد القدماء من فرق بين الشاعر المطبوع والشاعر الذي يعاود النظر في شعره بالتنقيح والتحسين، وأطلقوا على شعر الثاني شعر الصنعة، كما كنا نقرأ عن زهير بن أبي سلمى وغيره ممن سموا بعبيد الشعر[35].

والواضح من كلام الجرجاني حسب رأي محمد السمرة من خلال تقسيمه لعناصر الفن الشعري (الطبع، والذكاء، والرواية، والدربة) أنها على نوعين: فالطبع والذكاء يولدان مع الفنان، والرواية والدربة تكتسبان فيما بعد[36].

وتحديد القاضي لعناصر أو حوافز الإبداع الأدبي، يعد بحق من القيم النقدية الخالدة في تاريخ النقد العربي القديم، إذ استنتجنا من خلال هذا التحديد درجة النضج التي بلغها التفكير النقدي في ذلك القرن عموماً و عند القاضي الجرجاني بالخصوص.

**خامساً: تحكيم الذوق مع التعليل والتحليل:**

جعل القاضي من الاحتكام إلى التذوق سبيلاً لكل ناقد من أجل إيجاد حل لما استعصى عليه من المواقف التي يعجز عن تعليلها وتحليلها، ذلك أن القاضي يعتمد وبشكل كبير على تعليلات وتحليلات موجزة تعقب ما يورده من شواهد شعرية، حتى أن الشواهد الشعرية تطغى على الكتاب، فيما تتخللها أحكام نقدية موجزة، ويظهر هذا من خلال الطريقة التي يعرض بها مادة الكتاب؛ فنجده ينصح الناقد الذي يستعصى عليه التفسير أو الحكم على أثر أدبي أو ظاهرة فنية، أن يحتكم إلى« الذوق المصقول المدرب، فقد كان الجرجاني أديباً وناقداً، مرهف الحس...وبهذا جعل الذوق هو الحكم الأخير في روائع الأدب»[37].

فالجرجاني كثيراً ما يترك الحكم لذوقه، فنجده يختار للمتنبي بعض النماذج التي يعدها من عيون شعره، فقصيدة المتنبي التي قالها في مصر، ووصف فيها الحمى، تصادف من ذوق القاضي قبولاً ومن نفسه ارتياحاً:

وَزَائِرتي كأَنَّ بهَا حَيَـــــاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إلَّا في الظَّـلَامِ
بَذَلتُ لهَا المَطَارِفَ وَالحَشَايـا فعَافتْها وبَاتتْ في عِظَامي
يَضِيقُ الجِلدُ عَن نَفْسي وعَنها فـتُوسـعهُ بأَنوَاعِ السَّقَـام

يعلق القاضي بقوله: « وهذه القصيدة كلها مختارة لا يعلم لأحد هي معناها مثلها، والأبيات التي وصف فيها الحمى أفراد قد اخترع أكثر معانيها، وسهل في ألفاظها، فجاءت مطبوعة مصنوعة، وهذا القسم من الشعر هو المطمع المؤيس»[38].

فالحكم الصادر عن ذوق مجرب، مصقول بالدربة وطول الملابسة، يكسبه مصداقية يستغني معها المتلقي على حاجته إلى الشرح والتفسير[39].

وعليه نجد القاضي الجرجاني يعطى للذوق أهمية بالغة فيتمييز جيد الكلام من رديئه سواء كان هذا الكلام شعراً أو نثراً كما في قوله: « فإن العامي قد يميز بذوقه الأعاريض والأضراب، ويفصل بطبعه بين الأجناس والأبحر»[40].

واحتكام القاضي إلى ذوقه الشخصي نابع من إيمانه الراسخ بفكرة مفادها أن أي عمل أدبي يقاس « بمقدار تأثيره في نفس السامع وهزها، وهذا لا يكون إلا بما يحويه من عناصر إنسانية صادقة يكون لها صدى في النفوس، وهذا اتجاه نفسي في النقد قل أن تجد له مثيلاً عند النقاد الآخرين والحق أن صفة الإنسانية واضحة عند هذا الناقد في كثير من اتجاهاته»[41].

فنجده يعلق على قصيدة للبحتري بقوله: « ثم تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده، وتفقــد مــا يتــداخلُك مــن الارتياح، ويستخفك من الطرب إذا سمعته، وتذكر صَبوَة إن كانت لك تراهــا ممثلــة لضميرك،ومصــورة تلقــاء ناظرك»[42]، ولا يكتفي القاضي بهذا التعليق الذي يميل فيه إلى ذوقه الفني النابع من إنسانيته الطاغية على الكثيــر من أرائه النقدية، فنجده يقول: « فإن قلت: هذا نسيب والنفس تهش له والقلب يعلق به والهوى يسرع إليه فأنشد لــه في المديح قوله:

بلونا ضرائب مَنْ قَد نَــرى     فما إن وجدنا لفَتْح ضَرِيبَا
هو المرء أبدت له الحــادثا     ت عزماً وشيكاً ورأياً صليبا
تنقَّل في خُلُقَي سُــــــؤددٍ     سمــحاً مُرجَّى وبأساً مَهِيبا
كالسَّيف إن جئته صارخاً     وكالبحر إن جئته مستثيبا»[43].

فالقاضي يعطي بعداً إنسانياً نفسياً للنقد، إذ استسقى بعض أرائه النقدية من ذوقه الشخصي النابع من تــركم خبراته الأدبية.

ومع هذا يظل التعليل ضروري لتعزيز ما يذهب إليه أو ما يصدره الناقد من أحكام في ذهن القارئ كما هو الحال عندما يعرض بعض ما عيب على المتنبي ثم يعرض بعض جيده فيقول: « وليس من شرائط النصفة أن تنعى على أبي الطيب بيتاً شذّ، وكلمة ندرت و قصيدة لم يسعده فيها طبعه ولفظة قصرت عنها عنايته، وتنسى محاســنه وقد ملأت الأسماع، وروائعه وقد بهرت، ولا من العدل أن تؤخره الهفوة المنفردة، ولا تقدمه الفضــائل المجتمعــة، وأن تحطهُ الزلة العابرة ولا تنفعه المناقب الباهرة»[44].

وقد أورد القاضي الكثير من الأمثلة معتمدا على منهج المقايسة بين الأشباه والنظائر، كمــــــا فعــل فــي تعليلهلما عابه النقاد على أبي الطيب من إفراط و إغراق وغلو في الكثير من أشعاره كما في قوله:[45]

ولــوُ قَلــَمُ أُلقيتُ في شقّ رَأسِهِ     من السُقمِ ما غيرتُ من خَطِّ كاتِب

فبعدما يورد القاضي هذا البيت مع مجموعة أخرى من أبيات المتنبي، و التي بالغ فيها وأغرق في ألفاظهــا ومعانيها، يورد في المقابل مثيلتها من أشعار المتأخرين والمتقدمين ليبرر إفراط المتنبي ويؤكد أن الإفراط مــذهب عام في المحدثين، وموجود كثير في الأوائل، والناس فيه مختلفون[46].

فالقاضي يدعو صراحة إلى الاعتداد في النقد بالذوق المثقف الذي يعتمد على إقامة الحجة ومقارعة الــدليل بأقوى منه، ولا يعترف بالنقد الذاتي[47]، وهذا ما يشي به قوله: « فأما وأنت تقول: هذا غث مستبرد، وهذا متكلــف متعسف، فإنما تخبر عن نبو النفس عنه، وقله ارتياح القلب إليه»[48]،أما التعليلات الموجزة التي يعقب بها القاضــي الشواهد الشعرية، فقد استندت إلى حجج وبراهين انطلاقاً من فكرة المقايسة التي اعتمدها الجرجاني في مادة الكتاب، فهو يورد ما عيب على المتنبي ويقيسه بشواهد متعددة من شعر القدماء والمحدثين من أجل بيان أن ما عيب علــى أبي الطيب يعاب على غيره أيضاً.

**<u>سادساً:</u> الحكم الفاصل بين طرفي المخاصمة:**

الجزء الأخير من الوساطة يضعنا في أجواء محاكمة بين متنازعين، يكون القاضي الجرجاني هو المستمع لطرفي النزاع، ثم يفصل بين المتخاصمين بإصدار الحكم، هذا الحكم « هو النهاية التي ينتهي إليها كل نقد، أو محاكمة، لأن فيه يكون القول الفصل بين المتنازعين، والجواب الموضح للغامض المبهم من الأمور، ومن البديهي أن الحكم لا يتخذ شكلاً واحداً ثابتاً، بل يتغير ويتحول وبتغير القضايا المطروحة، وبتغير المرجعية المعتمدة في ذلك»[49]، وربما كان لاشتغال الجرجاني بالقضاء تأثيره الواضح في معالجته لمادة كتابه الوساطة، كما هو الحال في تعامله مع ما أُخذ عن المتنبي، فيقول على لسان خصوم المتنبي: «قد صغر الليلة ثم استطالها فقال: لُيَيْلَتنا المَنُوطة بالتناد. قال أبو الطيب: هذا تصغير التعظيم، والعرب تفعله كثيراً،قال لبيد:

**وكلُّ أُنَاسٍ سَوفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُويهِيةٌ تَصْفرُّ منهَا الأنَامِلُ**

أراد لطف مدخلها فصغرها. وقال الأنصاري:أنا عُذَيْقها المُرَجَّب، وجُذَيلُها المُحَكَّك؛ فصغر وهو يُريد التعظيم»[50].

وبعدما يريد القاضي حجة طرفي الخصومة، يدلي بحكمه وهو الفاصل في المسألة مع الالتزام بالوسطية وعدم الميل لطرف دون آخر، فيقول: «أما تصغير اللفظ على تكثير المعنى فغير منكر؛ وهو كثير في كلام العرب؛ ولكن في احتجاج أبي الطيب خلل؛ من قبل أن دويهية في هذا الموضع تصغير في المعنى واللفظ، وكذلك جذيلها المحكك لأن هذا لا يكون لطيف الجرم؛ وإنما هو جذم من النخلة تحتك به الإبل...وقول أبي الطيب"لُييلتنا" خارج مخرج الذم والهجو، ثم قد أزال الالتباس وأفصح عن المراد بقوله: "المنوطة بالتناد" فقد بين أنه لم يرد قصر مدتها»[51].

فتصور لنا الوساطة محاجات بين طرفي القضية ـ المتنبي و خصومه- تنتهي بالحكم الفاصل الذي يصدره القاضي الجرجاني، والذي جعل من العملية النقدية « محاكمة ترتفع فيها الدعوات، ويختصم في ظلالها المختصمون وفيها يبت في الأمور بتا عادلاً، يوفر لكل ذي حق حقه، وينزل كل منزلته التي أنزله فيها عمله وأوصله إليها جده ومثابرته»[52].

وقد كشف هذا المنهج الذي يتبعه القاضي على جانب آخر من شخصية المتنبي الشاعر فعرفنا على شخصية المتنبي المطلع والحافظ لعلوم اللغة وتراثها الأدبي وكأن الجرجاني يحاول أن يعرض المآخذ التي عابها القدماء على المتنبي، مشفوعة برأي الشاعر فيها وتعليله إياها،وبتالي يبقي المجال مفتوحاًأمام المطلع على الوساطة؛ وهذا حين يقرأ المآخذ التي عابها القدماء على المتنبي، ورد المتنبي عليها[53].

ورغم أن هذه الطريقة في التناول انحصرت في الصفحات الأخيرة من الكتاب، وهي الصفحات التي خصصها المؤلف لما أنكره خصوم أبي الطيب في بعض أشعاره؛ومع هذا تعد هذه الطريقة سابقة تفرد بها القاضي حين منح الفرصة للشاعر كي يرد عن ما كان يؤخذ عليه.

**سابعاً: منهج القاضي في الوساطة**

إذا كان الآمدي قد اعتمد على (الموازنة) في عمله النقدي، لأنه كان أمام شاعرين(أبي تمام والبحتري) ولأن بينهما نقاط توافق ونقاط اختلاف، مما أتاح الفرصة أمام الآمدي وبشكل كبير للموازنة بين هذه النقاط، ولكن ما يثير التساؤل؛ على ماذا سيتكئ القاضي الجرجاني في محاولته التوسط بين طرفي الخصومة حول شعر المتنبي من هنا كانت « المقايسة هي المبدأ الكبير في نقد الجرجاني؛ فالناقد الذي يتحرى الإنصاف قبل أن يفرد عيوب شاعر أو حسناته بالتميز عليه أن يقيسه على ما كان في تاريخ الشعر والشعراء، فلا يستهجن خطأه في اللفظ لأنه قلما تجد شاعراً سلم من هذا الخطأ، ولا يستنكر خطأه في المعنى فكم عدد العلماء من صنوف هذا الخطأ في شعر الأقدمين، ولا يسقط شاعر بسبب التفاوت في شعره»[54].

ولنفهم منهج القاضي في الوساطة نعيد إلى الذاكرة المشهد الذي تهجم فيه الحاتمي على المتنبي« فحينما اقتحم عليه مجلسه في دار البصري وأخذ يسرد ما استرذله من شعره لم يكن دفاع المتنبي عن نفسه فيما حكاه الحاتمي إلا أن قال: أين أنت من قولي كذا وكذا؟ أما يكفيك إحساني في هذه وتغفر لي إساءتي في تلك؟!!»[55].

فالقاضي عندما يحاول أن ينصف المتنبي،لا يقوم بمناقشة ما حاول خصومه تخطئته فيه بل يقيسه بأشباهه ونظائره عند الشعراء المتقدمين، ويبين أنهم لم يسلموا هم أيضاً من الخطأ وعليه فإن « أساس منهج الجرجاني في النقد يمكن أن نلخصه في جمله واحدة هي أنه رجل " يقيس الأشباه والنظائر" وعلى هذا الأساس بني معظم "وساطته" بين المتنبي وخصومه»[56].

ولا يعني القول بأن القاضي قد اعتمد على منهج قياس الأشباه بالنظائر في دفاعه عن أخطاء المتنبي، عدم وجود طرق أخرى استعان بها في الرد عن المعيبين عن شاعره فنجده يلجأ إلى « مناقشة المأخذ الفنية واللغوية، التي أخذها بعض النقاد عليه، ورأى أنها تحتاج لمناقشة وتصويب أن أمكن، توجيه ألفاظها ومعانيها على نحو مخالف لتوجيهات هؤلاء النقاد الذين هم أحد رجلين، إما نحوي لغوي لا بصر له بالشعر، وإما معنوي لا علم له بالإعراب ولا اتساع: له في اللغة»[57]،وكشف الجرجاني في هذه المناقشات عن علمه الواسع بعلوم اللغة، وإحاطته بجانب لا بأس به من المسائل اللغوية على اختلافها بين المدرستين الكوفية والبصرية.

كما أن الكثير من الدارسين يلح على أن « المقايسة التي سار عليها-القاضي الجرجاني- لا تخلو من مزالق كالتعميم والإيهام المنطقي وعدم الوقوف على رأي قاطع لا سيما فيما لا يمكن الاتفاق عليه بين النقاد ذوي الأذواق المختلفة»[58].

وقياس الأشباه بالنظائر ليس سبيل القاضي الوحيد في الدفاع عن المتنبي، بل قد استعان بطريقة ثانية، قام فيها بالأخذ من حسنات الشاعر بمقدار سيئاته، أي من كل سيئة حسنة أو أكثر، والحكم له أو عليه يكون من خلال طغيان الحسنات على السيئات أو العكس؛ وسمى هذه الطريقة (المقاصة) وصرح بذلك في قوله: « هذا ديوانُه حاضراً و شعره موجوداً ممكنا هلم نستقرئه ونتصفحه، ونقلبه ونمتحنه، ثم لك بكل سيئة عشر حسنات وبكل نقيصة عشر فضائل، فإذا أكملنا لك ذلك واستوفيته، وقادك الاضطراب إلى القبول أو البهت، ووقفت بين التسليم والعناد عدنا بك إلى بقية شعره فحاججناك به، وإلى ما فضل بعد المقاصة فحكمناك إليه»[59].

والأمر الذي اعتمده القاضي في المقاصة هو«ما قال أبو إسحاق القيرواني من أنه قد تدخل اللفظة في شفاعة اللفظة ويمر البيت من خلال الأبيات وتعرض الحكاية في عرض الحكايات يتم بها المعنى المراد وليست مما يستجاد»[60]،فطريقة المقاصة سارت جنباً إلى جنب مع طريقة قياس الأشباه والنظائر في دفاع القاضي الجرجاني على المتنبي.

وما يتفق عليه الكثير من الدارسين لكتب تراث النقد العربي، أن كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) يعد بحق بصمة مشرقة ومتميزة في تاريخ النقد العربي، وهذا مرده أن التفكير النقدي عند الجرجاني يتسم بقدر كبير من النضج والكمال، يدنو به من أن يكون منظراً أدبياً كبيراً، إذا لم يقف القاضي عند حد وصف الظواهر والتعليق العابر عليها، بل تعدى ذلك إلى آفاق التفلسف وبيان الماهِيات والعِلل، ومرجع ذلك قدرته، فيما يبدو، على الإحاطة بطبيعة الشعر العربي قديمه وحديثه وتحديد آفاق التجديد التي طرأت عليها.

**الإحالات:**

**1**-التفكير النقدي عند العرب، عيسى علي العاكوب، دار الفكر سوريا، ط1، 2006م ص268

2- الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم، د.عثمان موافى، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، ط3، 1995 م، ص19

3-ينظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية صيدا بيروت، ط1، 2006م.،ص 25

4-ينظر: الوساطة، ص25

5- الوساطة، ص25

6-الوساطة، ص25

7- مشكلة السرقات في النقد الأدبي،مصطفى هدارة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1958م(د.ط)، 263

8- ينظر: دراسات في النقد العربي، عبد الحكيم راضي، مكتبة الأدب، القاهرة، ط2، 2006م.ص197

9-المرجع نفسه، ص 199

10- تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، حتى القرن الرابع الهجري: د.محمد زغلول سلام،منشأة المعارف الإسكندرية (د.ط)1982م ص 358

11-ينظر: المرجع نفسه،ص291.

12-الوساطة، ص28

13- ينظر: القاضي الجرجاني والنقد الأدبي، عبد العزيز قلقيلة،الهيأة المصرية العامة للكتاب مصر (د.ط) 1973م.ص309

14-ينظر: الوساطة، ص343

15- ينظر: الوساطة، ص11

16-ينظر: تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، ص369

17-الوساطة، ص 11

18-ينظر: القيمة النقدية لكتاب الجرجاني (الوساطة بين المتنبي وخصومه)، دراسة لحسن أبو الرب،جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية) المجلد21 (2) العدد1، 2007م

19-الوساطة،ص180.

20- ينظر: التفكير النقدي عند العرب، ص269
21- الوساطة، ص13
22-لوساطة، ص 12
23-مفهوم النقد الأدبي في كتاب الوساطة للقاضي الجرجاني، دراسة لـــ: بالقاسم مالكية، مجلة الأثر، جامعة ورقلة، الجزائر، العدد (01)، 2002م
24-ينظر: النقد الأدبي، شوقي ضيف، دار المعارف ، مصر ط1 (د.ت)،ص 57.
-الوساطة، ص22 25
26-الوساطة، ص31
27-ينظر: النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، محمد مندور، دار نهضة مصر (د.ط) (د.ت).ص265
28- الوساطة، ص54
29- الوساطة، ص 23
30- القاضي الجرجاني الأديب الناقد، محمد السمرة، المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت، ط1979،2م.ص132
31-التفكير النقدي عند العرب، ص271
32- الوساطة، ص23
33- النقد المنهجي عند العرب، ص258-259
34- ينظر: التفكير النقدي عند العرب، ص270
35- ينظر: القيمة النقدية لكتاب الوساطة، دراسة لـــ: حسن أبو الرب، مجلة جامعة النجاح للأبحـــاث (العلـــوم الإنســـانية)، المجلد22(2)،2007م
36-ينظر:القاضي الجرجاني الأديب النافد،ص 133
37- القاضي الجرجاني الأديب الناقد، ص151
38- الوساطة، ص108-109
39- ينظر: معايير النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري، أحسن مزدور، مكتبة الأدب القاهرة، ط1، 2008م.ص28
40-الوساطة،ص .343
41- النقد المنهجي عند العرب،ص 263
42- الوساطة، ص33
43- الوساطة، ص33
44-الوساطة،ص 92.
45-ديوان،المتنبي،،دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت(د.ط)1983م ج1ص139.
46-ينظر: الوساطة، ص 348.
47-ينظر: النقد الأدبي، مصطفى السيويفي، دار البيان للطباعة مصر (د.ط)، 2002م ص15
48- الوساطة، ص91
49-مفهوم النقد الأدبي في كتاب الوساطة للقاضي الجرجاني، دراسة لـــ: بالقاسم مالكية، مجلة الأثـــر، الجزائـــر، ، العـــدد (01)، 2002م
50-الوساطة، ص379-380

51-الوساطة، ص380

52-مفهوم النقد الأدبي في كتاب الوساطة للقاضي الجرجاني، دراسة لـــ: بالقاسم مالكية، مجلة الأثر، الجزائر، ، العدد (01)، 2002م

53-ينظر:القيمة النقدية لكتاب الوساطة، دراسة لـــ: حسن أبو الرب، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، المجلـــد 22 (2)،2007م

54- ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب،"نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثـــامن الهجـــري"، د.إحســـان عبـــاس، دارالشروق عمان،ط4، 2006م. ص309

55- القاضي الجرجاني والنقد الأدبي، ص234

56- النقد المنهجي عند العرب، ص256

57- الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم،ص112

58- اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع للهجرة، منصور عبد الرحمن، مكتبة الأنجلو المصرية ط1(د.ت).ص276

59- الوساطة، ص55

60- القاضي الجرجاني و النقد الأدبي، ص239